مجلة الرائد

العدد : ٢٠٩ الموافق في محرم ١٤٢٠ هجري ٥ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الهجرة والمهاجر.. الحاضر والمستقبل	بقلم : متولي موسى

أولاً : حاضر الهجرة والمهاجر

بدأت الهجرة الحديثة للعمال المسلمين إلى ديار الغرب لإعمار أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كانت فيه عدد من البلاد الأوروبية مستعمرة لمعظم بلاد المسلمين ، وتسارعت هجرة الأيدي العاملة المسلمة إلى الغرب للحاجة إليها ، فقد كانت الأيدي العملة في الغرب قليلة ، والرغبة في إعادة بناء البلاد كبيرة وملحة .، ولرخص الأيدي العاملة المهاجرة ، التي يبذل أصحابها الجهد الشاق لقاء الأجر الزهيد .

خرج العمال الذين كان يطلق عليهم " الضيوف " في أول الأمر وحدهم ، ثم تبعتهم أسرهم ، وولدت أجيال جديدة في بلاد المهجر ، وأصبح عدد من البلاد العربية والإسلامية الفقيرة تعتمد اعتماداً كبيراً على تصدير الأيدي العاملة إلى الغرب ، وأصبحت تحويلات العمال المالية إلى هذه البلاد لها مكانة كبيرة في حصول البلاد على قدر كبير من حاجتها من " العملة الصعبة " ، فبلاد مثل تركيا والمغرب وتونس والجزائر ومصر تعتبر الهجرة إلى الغرب والتكامل الاقتصادي مع أوروبا ذات دور حاسم في تحسين الأوضاع الاقتصادية ، وصمام أمان في سوق العمل ، والهجرة بهذا الواقع ليست مسألة اقتصادية فقط ، بل هي كذلك ذات تأثير اجتماعي وسكاني ، حيث أن عدد الجاليات المسلمة في الغرب في تزايد مطرد ، وتعمل على تثبيت قواعدها من خلال الاستيطان والتجنس ، وهذا الوضع ترتبت عليه نتائج نلخصها فيما يلي :

بعد ظهور الأزمة الاقتصادية بعد حرب سنة ١٩٧٣م ، تعالت الأصوات المنادية بالحد من هجرة العمال الأجانب بصفة عامة والمسلمين منهم بصفة خاصة، ولكن هذه النداءات لم توقف الهجرة .. ولكن الأمر ازداد سوءاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي السابق وانفتاح أوروبا الغربية على الشرقية ، حيث عملت البلاد الأوروبية على إغلاق باب هجرة العمال المسلمين إليها ، وزاد الطين بلة - كما يقال - تصوير الإسلام على أنه العدو الجديد وهو دين العنف والإرهاب .. فضلاً على الزعم بأن المسلمين لا يذبون بسهولة في المجتمعات الغربية ..

بعد أن ولد الجيل الثاني والثالث في الغرب شعرت الأسرة المسلمة بالأخطار التي تهددها إذا أرادت الاستقرار في الغرب ، وهي في ذات الوقت تتعرض لمشكلات ليست قليلة إذا رجعت إلى البلاد

الأصلية ، فضلًا عن شعور الأنظمة في بلاد المسلمين بالقلق إزاء احتمالات إغلاق باب العمالة الأوروبية بموجب القواعد التنظيمية الجديدة للسوق الأوروبية ويرى المسلمون أنهم هم المستهدفون باعتبارهم عناصر غير مرغوبة ، خاصة وهم يشهدون مظاهر الغلو في النزعة المناهضة للهجرة من جانب السياسيين اليمينيين في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا بصورة شديدة وغيرها من بلاد أخرى مثل هولندا والدانمارك بصورة أقل حدة .. وفي ذات الوقت تهتم بلاد أوروبية مثل ألمانيا وفرنسا بالجيل الثاني والثالث من أبناء المسلمين ، ليس اعترافاً بوجودهم فحسب ، بل للحاجة إليهم للتوازن السكاني ، فهذه الزيادات ذات شأن في النمو الطبيعي للسكان .. !!

إن نطاق وحجم الهجرة من بلاد المغرب والمتجهه أساساً إلى فرنسا وجنوب أوروبا ، ومن تركيا والمتجهة أساساً إلى ألمانيا واسكندنافيا ، ومن شبه القارة الهندية والمتجه أساساً إلى بريطانيا وأمريكا الشمالية ، واسع ومطرد ، مما أدى إلى إقامة مجتمعات محلية مسلمة كبيرة على امتداد أوروبا الغربية وأمريكا وإن كانت هذه الأخيرة بدرجة أقل .

ففي بلدان مثل ألمانيا وبلجيكا وفرنسا يشكل العمال المغاربة والأتراك جزءاً من الساحة الاقتصادية والاجتماعية على مدى أجيال ، مما دفع - وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة وازدياد البطالة - إلى وجود مناخ غير مواتٍ ، بل وخطر أحياناً بالنسبة للمسلمين خاصة ، وتطور هذه الظروف لم يدفع اليمين المتطرف وحده لاتخاذ موقف العداء ، وإنما دفع أحزاباً أخرى إلى اتباع سياسات تستهدف وقف الهجرات من بلاد جنوب البحر الأبيض المتوسط الفقيرة والمكتضة بالسكان

كانت البرتغال وإسبانيا واليونان بلداناً مصدرة للأيدي العاملة ، إلا أنها وجدت نفسها مؤخراً في وضع يفرض عليها استقبال أعداد متزايدة من المهاجرين واللاجئين من العالم الإسلامي الفقير والذي تسيطر فيه أنظمة استبدادية ، كما كانت إسبانيا وإيطاليا بوجه خاص - وخلال فترة من الزمن - بلدان عبور للهجرة إلى المراكز الصناعية في اتحاد أوروبا ، ولكن مع وجود البطالة في هذه المراكز الصناعية ، أصبحت كل من إسبانيا وإيطاليا مقصداً لذاتهما يقصدهما المهاجرون .. مما زاد روح العداء بين أبناء البلاد الأوروبية والمهاجرين بصفة عامة والمسلمين منهم بصفة خاصة .

صدرت كثير من الدراسات والتحليلات التي أظهرت أن هجرات المسلمين إلى ديار الغرب تنطوي على آثار خطيرة تهدد العلاقات بمعناها الأوسع فيما يختص بالسياسة الخارجية والأمنية . ومن أخطرها دراسة ترجمة إلى العربية بعنوان " الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة " ورد بها في

المدخل : " وسوف تواجه المجتمعات الإسلامية ، شاءت ذلك أم أبت ، حقائق هيمنة النظام الدولي للرأسمالية والتجارة الحرة والدول - الأمم ، وتطبيق الديمقراطية ، والقيم الإنسانية المناظرة لأنماط التطور في الغرب . ويمثل الغرب محور هذا النظام الدولي بمجالاته المتباينة . وليس هناك من عالم بديل يمكن للمجتمعات الإسلامية أن تعيش فيه دون أن تسلم نفسها اختياراً إلى حالة من التهميش الكاملة "

ثانياً : مستقبل الهجرة والمهاجر :

لا شك أن مستقبل الهجرة يتوقف على نظرة الغرب للمهاجر المسلم ، وشعور المسلمين المقيمين في الغرب بالأمن والاطمئنان على بقائهم ، وهنا إشارات تحتاج إلى تدبر واستيعاب :

يساور أوروبا شعور بالقلق من احتمال هجرة غير مقيدة ، ومن تعذر استيعاب حوالي ستين مليون مسلم (وربما تسعين مليوناً مع نهاية القرن) . وهذا الوضع له دور كبير ، وإن لم يفصح عنه أحد ، في عزوف أوروبا عن تشجيع تطلعات تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي . وتنطوي عملية تنشيط السياسة المتوسطية للاتحاد الأوروبي على مخططات شاملة للمساعدات التنموية والاستثمار على طول الساحل الجنوبي ، وتهدف أساساً إلى صد تيار الهجرة .

على الغرب أن يوازن بين أمرين لهما علاقة بمصالحه المستقبلية في بلاد المسلمين .

الأمر الأول : **استقبال بعض العناصر المعارضة للأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين يمثل " صمام أمان " للحد من حالة الاضطراب والقلق السائدين في مجتمعات الجنوب ،**

والأمر الثاني : **ترحيل أو تسليم النشيطين الإسلاميين المقيمين في أوروبا وأمريكا ، وتأثيرات ذلك على العلاقات مع النظم الحاكمة من ناحية ، وأثر ذلك على زيادة المشكلات التي يمكن أن تواجهها الأنظمة الغربية من ناحية أخرى .**

موقف الغرب من الإسلام وقضايا المسلمين لها دور هام وأساسي في تشكيل الطابع العام للعلاقات بين المهاجرين والغرب ، ومن ذلك مثلًا موقف الغرب من قضية فلسطين ، وموقف الغرب من المسلمين في البوسنة والهرسك وفي كوسوفا ، كما أن علاقة الغرب بالمقيمين من المسلمين فيه ، وخاصة ازدياد العنف ، فإن العنف ضد العمال المسلمين وأسرهم في فرنسا وألمانيا وكذلك في إيطاليا - وإن كان بدرجة أقل - أصبحت أخباره تحتل الصفحات الأولى في الجرائد والمجلات ، وأصبح أمن الأتراك في أوروبا عنصراً مهماً في سياسية تركيا الخارجية ، وفي الحوار بشأن الأمن ، كما

تحول إلى قضية رئيسية في العلاقات الثنائية مع ألمانيا ، ويسود الشمال الافريقي تصور واسع النطاق بأن أوروبا فيما بعد الحرب الباردة اتخذت الإسلام عدواً لها ، مما قد يؤدي إلى حدوث أزمات في المستقبل .

اتباع سياسة مستقبلية للهجرة يمكن أن تكون دافعاً إلى التعاون في مجالات متعددة ، ويترتب عليه آثار ايجابية واستقرار في العلاقات بين بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط أو ما تعرف ببلاد الشمال والجنوب ، فضلاً عن أن تطورات الأحداث في البلاد الإسلامية نفسها يمكن أن توجد أزمات جديدة في مجال الهجرة إلى ديار الغرب ، فمثلاً قيام حكم إسلامي في تركيا أو الجزائر أو مصر سيدفع كثيراً من اللادينيين - العلمانيين - إلى الهجرة بأعداد كبيرة إلى ديار الغرب وربما سارع من انتشار ظاهرة لاجئي القوارب الفارين من الجنوب إلى الشمال .

تطور الأوضاع الصناعية واستخدام التكنولوجيا الحديثة سيؤدي بالضرورة إلى الاستغناء عن كثير من الأيدي العاملة ، فيتوقع أن تزداد البطالة مستقبلاً وهذا سيساعد على تفاقم الأزمة الاقتصادية ، وربما دفع هذا الوضع بعض السذج إلى تصور أن السبب في انخفاض المستوى المعيشي يرجع إلى وجود المهاجرين الأجانب مما يضاعف من حدة العداء وخاصة للمسلمين ، وربما ترتب على ذلك ازدياد ظاهرة العنف ضد الأجانب .

الخلاصة :

إن مستقبلاً بهذه الظروف يحتم على المهاجرين المسلمين القيام بعدد من الأمور :

اتباع منهج أولويات في فهم الإسلام والالتزام به وعرضه بصورته الناصعة ، فالاعتصام بالإسلام يشعر المسلم بارتباطه بمصدر الأمن في الدنيا والآخرة ، والعمل على النمو الكيفي ، فليست العبرة بكثرة العدد ، وإنما المدار على النوعية والكيفية ، قال رسول الله ﷺ : " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " [متفق عليه] ، وهذا الحديث يدل على ندرة النوع الجيد في الناس كندرة الراحلة في الإبل ، حتى أن المائة لا يكاد يوجد فيها واحدة من هذا النوع . والتفاوت في بني آدم أكثر منه في المخلوقات ، فقد جاء في الحديث الحسن : " ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان " [صحيح الجامع للشيخ الألباني : ٥٣٩٤]. وليس المهم ضخامة الجسم إذا لم يسكنه عقل ذكي وفؤاد تقي ، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو قوماً :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

٢. استيعاب قول الله تعالى { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا } **من قبل المسلمين والعمل على تحقيق هذا التعارف من خلال السلوك والأخلاق ، ولنتذكر أن الذين نقلوا الإسلام إلى جنوب شرق آسيا هم التجار الذين تخلقوا بالإسلام وتعاملوا مع غير المسلمين فكانوا قدوات سلوكية ، فنقلوا رحمة الله تعالى للناس**

٣. لا بد للمسلم المهاجر من اتخاذ الأسباب لتوفير البدائل التي يلجأ إليها عند الحاجة حتى لا يكون من المستضعفين الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، والله المستعان وعليه التكلان .